

تخطيط و عمارة المدينة الإسلامية مدينة دمشق القديمة
" نموذج حضري لقمة التعايش والتعامل في المنظور الإسلامي "
م.م ميادة عبد الملك محمد صبري
معهد التخطيط الحضري والإقليمي _ للدراسات العليا

المستخلص:

الإسلام دين حضري تضمن الكثير من التعاليم الإنسانية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، ومنذ ظهور الاسلام وتعاليمه السمحة فقد حاول المسلمون وبالأخص المعمارين المخططين الحضريين (اخذين بنظر الاعتبار مفهوم التخطيط الحضري لتلك المدة) ان تكون المدن الجديدة في دول الاسلام ذات مفاهيم متأثرة بالدين الاسلامي بصورة مباشرة وغير مباشرة، عليه كانت، انماط تخطيط المدن الجديدة متأثرة بالمفاهيم الجديدة بالاسلام ولاسيما طريقة التعايش والتعامل داخل المستقر الحضري، عليه انعكست هذه المفاهيم على طريقة تشكيل الانماط الجيومترية بالمفهوم التخطيطي الحضري متأثرة بالحضارة العربية في الجزيرة العربية وحضارة وادي الرافدين والنيل بصورة مباشرة وغير مباشرة مع التطوير والتحسين.

Abstract:

Islam is modern religion Enclosing many humanitarian, social and economic principles, and since its appearance Muslims tried Especially urban planners to give the new cities in Islamic countries concepts related to Islamic religion in a direct and indirect way (taking under consideration the concept of urban planning in that period). Therefore, the patterns of planning new cities became influenced by the new concepts of Islam through ways of living and acting within an urban settlement. These concepts reflected on the way of forming geometric patterns with urban planning concepts affected by Arab civilization in the Arabian Peninsula and the Mesopotamia and Nile civilizations in a direct and indirect way through development and improvement.

المقدمة:

لغرض البدء بمناقشة المفهوم الحضري للتعایش والتعامل ومن وجه النظر الحضريّة، لا بد لهذه الدراسة إن يوجد مجتمع حضري لها ونعني به وجود شاخص أو شواخص حضرية فيزيائية تتعامل مع هذه التجمعات للوصول إلى مفهوم التجمع الحضري، ولأجله سوف نسترشد لأول مستوطن حضري أصبح إسلامياً، إلا وهو مكة (أم القرى) منذ نشأتها إلى ما بعد إن أصبحت مدينة إسلامية بالمفهوم الحضري الإسلامي وما بعدها من مدن إسلامية أنشأت في القرون الهجرية الأولى وصولاً إلى الأمصار والحوضر العربية الأخرى وسوف تكون حضرة دمشق هي محور الدراسة.

إشكالية البحث:

هل ان المدينة الإسلامية، تمثل عناصر مهمة في حضارة الأمة الإسلامية، وهل بالامكان الاستفادة من طرح المنظور الإسلامي في التكوين المعماري من خلال التعایش والتعامل الانساني لأنه المرآة الحقيقية لاي حضارة؟.

فرضية البحث:

إن امتلاك العمارة بشكل عام والعمارة الإسلامية بخاصة نظاماً له القدرة على التعایش والاستمرار وتلبية متطلبات الحياة الاجتماعية والعمرانية لتحقيق إمكانية التعامل وتعزيز وإعادة وتطويرها لكي تتسجم مع متطلبات المفاهيم المعمارية والتخطيطية.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى التعريف بمجالات الإبداع والتميز التخطيطي للعمارة الإسلامية والأسس التخطيطية للمدينة العربية الإسلامية لقيمة التعایش والتعامل الحضاري من خلال النتاج المعماري الذي يعكس واقع المجتمع الإسلامي في جميع مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والخصائص المادية لتستوعب مختلف هذه المتغيرات وتطوعها ليتناغم هذا التنوع الجميل ويثري بعضه بعضاً في إطار الإسلام كنظام شامل للحياة.

الإطار النظري للبحث:

يضم المعلومات النظرية المتعلقة بالمفاهيم المعمارية والتخطيطية والمدينة وخصائص وعوامل كل منها وقد تم استخدام المنهج الوصفي في دراسة وتحليل مدينة دمشق القديمة كونها تمثل احد المدن العربية الإسلامية كحالة دراسية .

مفهوم المدينة الإسلامية:

المدينة والتمدين ارقى انجاز توصل اليه الانسان في استقراره على الأرض وهي وليدة الحضارة او انها الحضارة وهي مركز الإشعاع الفكري، واسلوب متقدم من أساليب الحياة والمدينة الإسلامية لا تخرج عن هذا الإطار، فهي جماع المظاهر المادية للحضارة الإسلامية التي تعبر عن طبيعة الفكر

الإسلامي سواء بمبادئه العامة او جزئيات تطبيقه، فالمدينة الإسلامية هي المكان الحضاري الذي يتم فيه التفاعل بين الناس على وفق قيم مقدسة يحترمها الجميع نابعة من المفاهيم المتمثلة بمصدريها الرئيسيين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لدى المجتمع، وقد ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قوله: (لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا اضحى الا في مصر جامع او مدينة عظيمة ...)، وهذا يفسر لنا ان المدن والأمصار هي التي تتحقق بها صلاة الجمعة ، وفيها السلطان يقيم الحدود، وقاض ينفذ الأحكام فقد وجدت المدينة الإسلامية في الإسلام دستوراً واضحاً كان عليها أن تطبقه، وكان السعي وراء توصيل افكاره للعامة من مهمة الفقهاء والعلماء المفكرين الدينين الذين حاولوا ذلك وان اختلفت مذاهبهم .

وبناءً على ذلك فإن المدينة "نظام اجتماعي ،ونظام اقتصادي ونظام سياسي،وعلى أنها عمل فني و أداة للاتصال" (١). لذا فالمدينة العربية الإسلامية " ليست مجرد ظاهرة جغرافية أو تاريخية فحسب ،بل هي أولاً وقبل كل شيء ظاهرة دينية اتسمت بتعبير وتنظيم مكاني حسب ما جاء في التشريع الإسلامي ، إذ امتزجت فيها القوانين المادية بالقيم الروحية" (٢). لهذا فان المدينة الإسلامية تعد انعكاساً لنظام عقائدي واجتماعي وثقافي ،فنسيجها الحضري وتكوينها الفضائي جاء نتيجة لتفاعل الإنسان مع بيئته الحضرية تحت مفهوم عام هو الإسلام .ومن الملاحظ إن أغلبية المدن الإسلامية لم تنشأ في عصر صدر الإسلام من قبل المسلمين أنفسهم الأمر الذي كان من الواضح دور التحول في الفكر و تأثيره في تغيير معالم المدينة و تحويلها إلى طابعها الجديد المتأثر بالمنظومة الكامنة التي هي هنا الفكر المتمثل بالدين الذي يمثل نموذجاً حضرياً للتعايش بين الناس .

نشأة المدينة الإسلامية :

بدأت نشأة المدينة الإسلامية من "يثرب " بعد هجرة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وآله وسلم) إليها التي حولتها إلى " مدينة " بمفهوم حضاري واضح انسحب على تسميتها فأصبحت تسمى " المدينة" بعد الهجرة حدث تغيير واضح ، سعى إلى تحقيقه الرسول الاكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ، أساسه الدعوة إلى الإسلام ، ذلك الدين الذي بدأت في ضوء قيمه وتعاليمه عملية تهيئة المجتمع الاسلامي الجديد لحياة حضارية تلازمت تماما مع اهتمامه بالكيان المادي للمدينة فأدى ذلك تدريجياً الى تكامل المراكز الحضارية الاسلامية^٣.

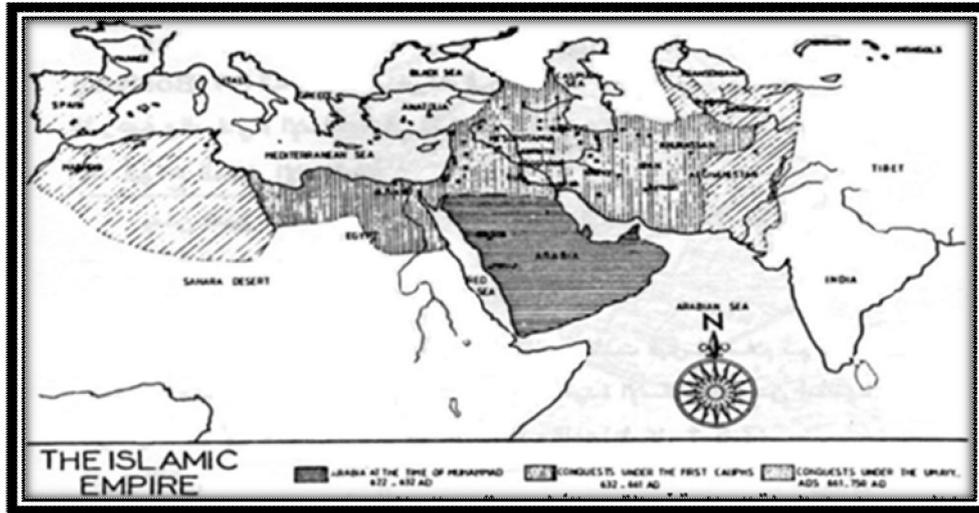
(١) اليسيف ، نيكيتا ، التخطيط المادي ، مقالة من حلقة الندارس التي عقدت بمركز الشرق الأوسط التابع لكلية الدراسات الشرقية جامعة كمبرج ، المملكة المتحدة تحت عنوان "المدينة الإسلامية" ، ترجمة احمد تغلب ، أشرف على النشر (ر.ب. سرجنت) ، اليونسكو ، ١٩٨٣ ، ص١٥

(٢) الجادري ، رفعت ، التراث ضرورة ، مجلة اتحاد المهندسين العرب ، العدد ١٩٨٥/٣٧ ، إصدار الأمانة العامة لاتحاد المهندسين العرب ، بغداد، ١٩٨٥ ، ص٢٣ .

٣ _ عثمان ، محمد عبد الستار ، "المدينة الإسلامية" ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ص١٩٨٨،٥١م.

وبعد هجرة الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) الى يثرب بدأت تتغير معالمها العمرانية تغيرا جمع شتاتها ووحدها كيانه وجعلها مركزا حضاريا متكاملًا يتناسب وذلك التغير الذي طرأ على مجتمعها الاسلامي الجديد الذي بدأ يستجيب للتشكيل الحضاري الجديد الذي يدعو اليه الاسلام^٤ لاحظ شكل رقم (١).

فالمدينة الاسلامية صاغت من كل الامم التي اعتنقت الاسلام مجتمعا جديدا ذابت فيه المجتمعات القبلية تحددت تدريجيا معايير وتوجهات قائمة فيه على المنهج الحياتي الذي حدده الاسلام وصارت مبادئها وقيمها مع مرور الايام نوعا من العرف العام له وظيفة القانون صار تطبيقه سلوكا عاما يلتزم به المسلمون حيث كانوا في هذا الاطار المادي الذي اخذ شكلا خاصا يطلق عليه المدينة الاسلامية.



شكل (١) يمثل امتداد الدولة الإسلامية في القرون الأولى من ظهور الإسلام

م/ Kettana , Lutfallah Jinin A.L., A case study in history of Islamic towns , PhD Thesis submitted to the Victoria University of Manchester, Manchester, ١٩٧٩, fig. ١-١.

تصنيف المدن الإسلامية:

اسس العرب المسلمون الكثير من المدن الاسلامية الجديدة منذ هجرة الرسول الاكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) الى المدينة المنورة .وصنفت هذه المدن الاسلامية تبعا لوظائفها وقت تأسيسها والأهداف التي أنشئت من أجلها، فمنها ما بدأ على هيئة معسكرات حربية ثم تطور إلى هيئة مدينة كالبصرة والكوفة والفسطاط والقيروان، ومنها ما اتخذ لأغراض إدارية كواسط، ومنها ما انشئ كعواصم أو حواضر للدول المتتابعة كبغداد والقاهرة وفاس وغيرها، ومنها ما كانت في بداية مناطق

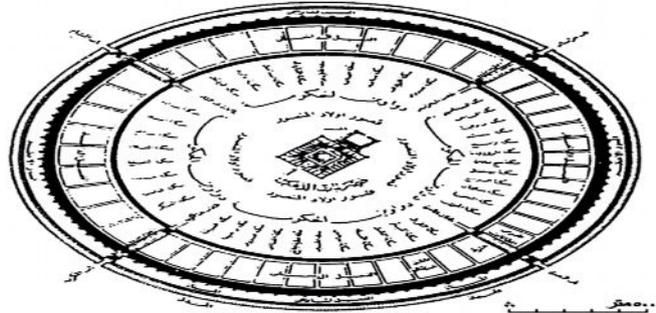
^٤ _ عثمان، المصدر نفسه ص ٥٣.

^٥ _ الهذلول، صالح بن علي، المدينة العربية الإسلامية، اثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية، ص ١٩، ١٩٩٤م.

ارتكاز تحصينية للدفاع لاحظ شكل (٢)، وبمرور الزمن غلب عليها الطابع المدني وتحولت إلى مدن كالرباط والمونستير ومجريط (مدريد) وغيره ومنها ما نشأ ونما مرتبطا بعوامل دينية كالنجف وكربلاء والكاظمية وغيرها^٦.



منظور تخيلي لأحد شوارع المدينة



مخطط مدينة بغداد الدائرية

شكل (٢) يمثل مدينة بغداد المدورة م (<http://www.arab-ency.com/>)

١_ المدن العسكرية (المعسكر أو الفسطاط) :

وهي المدن التي نشأت عن مخيم عسكري اقيم اما في المنطقة المجاورة للمدينة كالفسطاط او القاهرة القديمة التي انشئت بالقرب من حصن بابلليون الروماني ، او في مواقع منعزلة نسبيا عن المستقرات المنافسة مثل الكوفة والبصرة في العراق والقيروان في تونس، ان هذه المعسكرات نمت وحافظت على عمرانها واصبحت مأهولة بالسكان الى يومنا هذا حيث تحولت هذه المعسكرات بسرعة الى مراكز حضرية وهو احد العوامل المهمة في تثبيت شخصية الاسلام وتسهيل مهمة الفتوحات الاسلامية .فالبصرة والكوفة التي انشأهما العرب المسلمون تعدان في مقدمة المدن العربية الاسلامية في العراق خاصة وفي العالم الاسلامي عامة تركت كل منهما طابعا سياسيا واجتماعيا في التاريخ الاسلامي.

٢- المدن المحصنة او الرباط : تأسست هذه المدن كقلاع على الحدود اوداخل البلاد لتأكيد نفوذ الدولة الاسلامية وحماية حدودها وكان اصل هذه القلاع مواقع عسكرية اوحاميات على الحدود وقد نمت وبرزت الى الوجود كمدن محصنة واصبحت نويات لمدن مهمة جدا مثل الرباط في المغرب والمنستير في تونس .

٣_ المدن الاميرية :نشأت هذه المدن نتيجة ازدياد النفوذ السياسي او القوة السياسية انشأها الحكام لكي تعبر عن السلطة السياسية للدولة بتأسيس عاصمة جديدة خاصة بها ،كمدينة بغداد التي اسسها العباسيون^٧.

٤_ مدن المراقدة المقدسة: تعبر مدن المراقدة المقدسة تعبيراً صادقاً عن جوهر الاسلام وتعاليمه ومفاهيمه وقد تمثلت فيها جميع خصائص المدينة الاسلامية في تخطيطها الذي انسجم مع مبادئ الدين

^٦ _ عثمان ،المصدر نفسه ص٩٥-٩٦.

^٧ - الهذلول ، المصدر نفسه ،ص١٩.

الاسلامي وقيمه وترجمت في هيكل عمراني ومميز. وقد اوجدت المراقدة المقدسة لمداخن الائمة والعلماء نواة لمدن دينية كبيرة مهمة منها كربلاء والنجف الاشرف والكاظمية وسامراء ومشهد وغيرها^٨. فالمدينة الاسلامية ليست فقط التي بناها المسلمون او المدن الملكية التي بناها الأمراء مقرا للحكم والسكن ولكنها الوحدة الحضارية التي نشأت و تطورت فيها الحضارة العربية الاسلامية بمركزها ومؤسساتها وبطرائق البناء والعمران وعاداتها في المأكل والملبس والاعياد الدينية والتقاليد. فكلمة المدينة الاسلامية تعالج معنى اوسع من مدينة المسلمين ، فالمدينة الاسلامية صاغت من كل الامم التي اعتنقت الاسلام مجتمعا جديدا ذابت فيه المجتمعات القبلية وتحدت تدريجيا معايير وتوجهات قائمة على المنهج الحياتي الذي حدده الاسلام وصارت مبادئها وقيمتها مع مرور الايام نوعا من العرف العام له وظيفة القانون والزاميته صار تطبيقه سلوكا عاما يلتزم به المسلمون حيث كانوا في هذا الاطار المادي الذي اخذ شكلا خاصا يطلق عليه المدينة الاسلامية .

العوامل التي كونت المدينة والعمارة الاسلامية:

كما هو معلوم إن أول بيت وضع للناس كشخص فيزيائي هو بيت الله الحرام^٩، وتشير المصادر التاريخية على إن نبينا آدم والملائكة على الأرجح هم أول بناء لهذا الصرح الرباني^{١٠} العظيم ثم رفعت قواعده بعد مدة طويلة مرة أخرى وبصوره كاملة على يد سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل (عليهما السلام)، وتمت صيانتها بعد تقليص مساحة البناء للبيت الحرام لظروف اقتصادية على يد سيدنا وقائدنا محمد (ص). بعد إن ترك سيدنا إبراهيم زوجته هاجر وابنه إسماعيل عند البيت الحرام وظهور بئر زمزم كمصدر للعيش والبناء آنذاك، فقد بدأت أول بدايات التكوين للمفهوم العام للعيش والتعامل حول هذا البناء (بيت الله الحرام) لتجمعات حضرية داخل الجزيرة العربية، حيث كانت بعض القوافل المارة بالبيت المعمور (بيت الله الحرام) قد رغبت بالتجمع والاستيطان حول هذا البيت والاستفادة من ماء زمزم للعيش والزراعة. إن هذه التجمعات تطورت في الاستقرار والعيش وأصبحت على شكل مستوطن حضري مصمم سمي بعد ذلك بأمر القرى^{١١}، بحيث إن قبيلة قريش أخيرا أصبحت وبضمنها مجموعة من القبائل العربية المتاخمة متلاحمة نوعاً ما مع بعضها وبصورة بدائية من الناحية التخطيطية، على الرغم من وجود خلافات بينهما وبين القبائل الأخرى حول مكة المكرمة علماً بأن هذه التجمعات كانت مبتعدة عن دين الأبراهيمي نوعاً ما^{١٢}، حيث إن العلاقات الاجتماعية لا تتناسب

^٨ _ الموسوي- مصطفى عباس، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الاسلامية، بغداد، ص ١٥٩- ١٩٨٢ م.

^٩ _ القرآن الكريم: إل عمران: ٩٦.

^{١٠} _ ياقوت، شهاب العربي أبي عبد الله، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤١٤-٤٦٦، مطبعة دار الجبل لبنان، ١٩٧٦.

^{١١} _ ياقوت، نفس المصدر، ص ٤٤.

^{١٢} _ الخربوطي، د. علي حسين، تاريخ مكة، ص ٦٥-٨٠، مطبعة دار الجبل، لبنان، ١٩٧٦.

مع الدين الإسلامي الذي لم يظهر آنذاك. وبعد ظهور الإسلام بمكة المكرمة على يد سيدنا محمد (ص) بدأت الاطاريح الإسلامية السماوية للمفهوم الحضري تظهر تظهر على هذا التجمع الحضري داخل وخارج مكة وما حولها. وكانت العلاقة سلبية مع المسلمين الجدد أمام المشتركين من أهل مكة وقبائلها المتشددة المعتقدات المعروفة آنذاك*.

بعد الهجرة النبوية الشريفة من مكة (أم القرى) إلى يثرب فلقد تغير نوع التعايش والتعامل الحضري داخل يثرب لوجود القيادة الإسلامية على يد مؤسس الدولة الإسلامية الحضرية وهو محمد (ص)، فلقد لوحظ بان الجماعات الإسلامية المهاجرة من مكة إلى يثرب قد استوطنت في هذا المركز الحضري الجديد وتغير اسم هذا المستوطن وسمي " المدينة "، بعد إن كان سكانها فقط من الأوس والخزرج وبعض اليهود ذوي العلاقة السلبية مع كل التجمعات الموجودة معهم آنذاك، وبعد الهجرة أصبح الاندماج والانصهار الحضري الجديد من قبل الأوس والخزرج والمهاجرين ذو رسالة إسلامية واحدة وبفكر قيادي متمركز في المدينة ما عدا شزيمة من اليهود الذين كان تاريخهم سلبياً مع المد الإسلامي من ناحية

التعايش والتعامل^{١٤}، ثم امتدت آثار هذا النموذج من التعامل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وخاصة بعد فتح مكة حيث تم الانصهار الكامل للتعامل في جميع سكان مكة والمدينة حيث أصبح نموذجاً يحتذى به ولحد الآن، وتكون مفهوم حضري اجتماعي حديث في مكة والمدينة من ناحية التسلسل النمطي لهاتين المدينتين المحررتين حيث الجامع أو الكعبة في الوسط والأسواق حولها، ثم السكن للطوائف والقبائل وحسب تسلسل انتمائها زمنياً ومكانياً للإسلام^{١٥}، أما بقية التجمعات للأديان السماوية الأخرى مثل اليهود والنصارى فكانت لهم خصوصية في هذا المجتمع الحديث وهي ملاحظة جديرة بالاهتمام في الوقت الحاضر مع بقاء دين الدولة الإسلام.

إن هذا التحضر الإسلامي الجديد كان حديثاً في التطبيق والتنفيذ داخل الجزيرة العربية ثم أصبح بعد ذلك نموذجاً يحتذى به بعد الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً واعتبر من أفضل الحلول التخطيطية الحضرية والعمرانية للتعايش والتعامل آنذاك^{١٦}.

وبعد انتشار الفكر الإسلامي بدأت الفتوحات تنتشر خارج الجزيرة العربية، وخاصة في الشام والعراق، حيث نلاحظ بان هناك نوعين من نجاحات هذا التعايش والتعامل داخل المدن المفتوحة في الشام،

* إن تلك المعتقدات قبل الإسلام كانت بدائية وغير سماوية وعلى الرغم منها فإنها تحتوي على بعض الإيجابيات وكثير من السلبيات التي تجعل المجتمع مشرکاً.

^{١٤} - خليل، د. شوكت، أطلس السيرة النبوية، ص ٦٤-٩٠، دار الفكر المعاصر دمشق، ٢٠٠٣.

^{١٥} - حامد، د. خالد محمد، ذكرى في المدينة المنورة، ص ١٧-٢٥، دار المأمون للتراث، ٢٠٠٢.

والعراق^(*)، ففي الشام فقد سكن المسلمون الفاتحون المدن المفتوحة وبتجمعات خاصة بهم أول الأمر ولكن ضمن المدن المفتوحة مثل دمشق والقدس الشريف وحلب، وانصهرت بعد ذلك تلك التجمعات السكانية تحت لواء الإسلام بحيث إن المناطق الإسلامية المتاخمة للنصارى كانت أكثر تقدم حضري عن بقية المناطق وذات نوعية عالية من ناحية الاندماج نظرياً وعملياً فبدأ سكان المدن القديمة من النصارى واليهود يندمجون مع المسلمين الفاتحين بطريقة ليست قسرية وإنما سلمية، وتأثروا بالمبادئ الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والدينية للساكنين، إذ إن قسماً منهم دخل الإسلام وحسن أسلامة وأصبحت الكثير من أنماط حياتهم في داخل هذا المجتمع الجديد متأثرة بفقهاء الإسلام وتعاليمه مما اثر أيضاً على تخطيط المدن المفتوحة الجديدة^{١٧}. أما في المدن الممصره الإسلامية^{١٨} ولاسيما في العراق ولكون دولة فارس قبل الفتح الإسلامي كانت تتدين بالديانة المجوسية القديمة فلقد حاول الخلفاء المسلمون إن يشيدوا لهم مدناً أو حواضر جديدة مبنية بأيدٍ إسلامية وبتخطيط هندسي إسلامي^(*)، روعي فيه الهندسة العمرانية الجديدة وحسب المفهوم الإسلامي المتطور عن مدينة يثرب، ومكة المكرمة وبمقياس أكبر تقدماً عمرانياً، إذ إن المهندس أو المخطط الحضري المسلم، قد صمم ونفذ مدناً جديدة روعي فيها مفاهيم الإسلام وبتطبيق حيوي ساعده نظام الحسبة بكل أشكاله، اخذ بنظر الاعتبار توجيهات وضع المسجد الجامع أولاً ثم سكن القوات وبقية أفراد المجتمع مع ملاحظة توفير الأسواق وبقية الخدمات الاجتماعية لساكني تلك الحواضر. ويطرق مبتكره متقدمة حضارياً وهندسياً عن مدن فارس والروم، ومن هذه المدن المهمة البصرة والكوفة وبغداد وسامراء.... الخ.

نستنتج أن أهم العوامل التي شكلت تكوين الحاضرة الإسلامية عوامل (الديني، البيئي، يضاف إليها عامل ثالث هو الإنسان)، وذلك معتمدة على درجة تفاعل الإنسان مع العاملين الديني والبيئي .
العوامل المؤثرة في تخطيط المدن و العمارة الإسلامية:

تأثر تخطيط المدينة و العمارة الإسلامية بعوامل و مؤثرات كثيرة شكلت هيكل المدينة والعناصر المعمارية و من أهم هذه العوامل الآتي- :

١_ فتوحات الإسلام في بلاد متحضرة شرقاً و غرباً و اتساع نطاق الإمبراطورية الإسلامية من الهند الى الأندلس.

(*) كانت مدن الشام تحت الاحتلال الروماني الذي كانت معتقداته من النصرانية اما في العراق فكانت معتقدات الدولة الساسانية على الغالب مجوسية مشرقة.

^{١٧}-Haurani, F Islamic cities, pp ٧-٩٠, oxford press, London, ١٩٨٠ Lewis, parry, spread of Islam, pp ٣٠- ٦٠, Manchester press, ١٩٨٩.

١٨_ Haurani, نفس المصدر السابق ص٦٧

* تشير الكثير من المصادر بان الخلفاء الأوائل قد أمروا القوات الفاتحين للعراق بنشيد مدن جديدة وبأيدي إسلامية.

- ٢_ البواعث الدينية و النظم السياسية والاجتماعية و التشريعية التي أوجدها الإسلام، ومفهوم كل شعب منها.
- ٣_ فنون الأمم العربية التي استوطنت أطراف الجزيرة و مجاورتها للأمم المتمدنة، وتأثير فنون هذه الأمم على فنون العرب و العمارة قبل الإسلام.
- ٤_ تأثير بقايا الحضارات السابقة في الأقاليم و البلاد المختلفة على العمارة الإسلامية مثل ظهور الطراز المعماري الأول في سوريا حيث أقام الأمويون دولتهم، فتأثرت عمارتها بعمارة الفناالبيزنطي وفي بغداد حيث ظهرت الدولة العباسية، فتغيرت أساليب العمارة و غلبت الأساليب الفارسية على عناصر العمارة الإسلامية.
- ٥_ الاقتباس من فنون الأمم الأخرى التي أصبحت تحت حكم العرب مع صبغها بالروح الإسلامية وبقاء صبغها محلياً، و استخدام الصناعات من مختلف البلاد و تأثير مهارتهم على الفنون الإسلامية .
- ٦_ تعدد مواد البناء و أنواعها في مختلف الأقاليم.
- ٧_ اختلاف الطقس و المناخ، معتدل على سواحل البحر الأبيض المتوسط غزير الأمطار في الشتاء، شديد الحرارة وشمس، و أمطار نادرة في معظم أنحاء البلدان العربية – في الأندلس أمطار غزيرة وثلج في الشمال وفي بعض المناطق الجبلية.
- ومن اهم المعايير الجديدة التي استحدثتها الإسلام في عمارة المدن: _
- ١_ المسجد ومركز الحكم و الأمانة يمثل مركز المدينة و جميع الطرق الرئيسية في المدينة تصل بين المناطق السكنية ومركزها المتضمن المسجد الجامع و قصر الأمانة و السوق الرئيس بالمدينة.
- ٢_ دور الطبقة الغنية من السكان التي تقع على امتداد الطرق الرئيسية وتمتاز بسعة مساحتها وتعدد غرفها بينما تقع أحياء الطبقة الفقيرة من السكان خلف الأحياء السكنية للطبقة الغنية وهي ذات مساكن صغيرة المساحة على جانبي أزقة طويلة ملتوية.
- ٣_ التدرج في الشوارع فنجد الشارع الأعظم في البصرة بالعراق ٦٠ ذراعاً و ٢٠ ذراعاً لغيره أما الأزقة أو الدروب فقد حددت ب ٧ ذراع و هذا المقياس قد ارتبط تحديد مقاييس الطرقات وتدرجاتها بعوامل مختلفة منها ما هو مستقل أصلاً بنظام تخطيط المدينة و منها ما هو مرتبط بطبيعة الموقع و المناخ وطريقة و نوعية الارتفاع.
- ٤_ نظام الأسواق التخصصي بحيث نجد أسواق الحدادة - العطار - النجارة - الصناعات التقليدية.
- ٥_ تعدد مرافق المدينة في المدة الإسلامية الأولى من حمامات ومدارس و زوايا ومستشفيات و خانات.
- ٦_ الأسوار وتحاط أغلب المدن بأسوار و خنادق لتحميها من هجمات القبائل المتجولة و أطماع الحكام المجاورين. منطقة الضواحي و تقع خارج السور حيث تتواجد الحقول الزراعية و المراعي التي تحتضن القرى كمراكز للاستيطان.

٧_ النظام الإداري المتميز في المدينة الإسلامية حيث يوجد نظام الحسبة والمحتسب وهو جهاز يختص بالشئون الحضرية ومتابعة الجوانب التخطيطية للمدينة مثل المحافظة على الطرقات واتساعها، ونظافة الشوارع، ومراقبة المباني وارتفاعها، وعدم الإطلال على الجار، وتفادي أخطار النشاط الحرفي على المارة هذا بالإضافة لمراقبة الأسواق^{١٩}.

وبذلك أوجدت الديانة الإسلامية العديد من العناصر المعمارية مثل المسجد و المآذن، كما أثرت على تحسين العديد من العناصر المعمارية الأخرى مثل القوس و القبة و العمود و الصحن و الإيواء حتى أخذت هذه العناصر أشكال متطورة حتى وصلت في العمارة العثمانية و الأندلسية الى مستويات عالية من الدقة و الروعة.

الخصائص العامة لتخطيط العمارة في المدينة الإسلامية:

وما دراستنا لتخطيط المدينة الإسلامية ألا لكوننا نعتبره احد السبل التي من خلالها نستطيع تفسير الطراز المعماري ومصادره وأصول أفكاره في عمارتنا الإسلامية التي تميزت بالبعد الفكري العميق وبالحس الهندسي الرياضي والذين اضافوا عليها طابعا متميزا على مر العصور. فالمعماري المسلم يربط الخيال والاحساس مع هندسية متجانسة، فينتج الشكل الذي يعطي حقيقتين احدهما فيزيائية نعقلها والاخرى ميتافيزيقية ندركها ونعطيها هيئة مرئية لاستيعابها ويساهم ربط الافكار مع الموجودات الهندسية والرياضية في ابداع الطرز، والتي لا تنتج دون وجود امكانيات الحس الهندسي والرياضي للجمال والتجانس. وبذلك فالفكر والهندسة والرياضيات توضع في صميم العمارة الإسلامية، حيث ان ترتيب العناصر المادية في التصميم يكون باتباع قوانين الهندسة على اساسيات النظريات الرياضية لتكوين الانماط التصميمية. لذا هذه التخطيطات الحضرية الجديدة هندسياً وحضرياً كانت متماشية مع روح العصر وجوهر الفهم لأهمية التعايش والتعامل تحت راية الإسلام، بحيث إن هذه المدن في العراق أصبحت آنذاك اطلساً حضرياً ونموذجاً يحتذي به إلى حد الآن، وكانت النظريات التخطيطية الهندسية ذات مدارس عملية وعلمية من ناحية التنفيذ لغرض إعطاء الأهمية لفكرة التعايش والتعامل داخل تلك المدن.

^{١٩} علي، سيد عباس، اثر البعد البيئي على تخطيط المدن والعمارة العربية الإسلامية، مؤتمر الأزهر الهندسي الدولي التاسع، ابريل ١٢- ٢٠٠٧/١٤.

لنأخذ على سبيل المثال مدينة بغداد العباسية (بغداد المدورة) التي أمر بتنفيذها الخليفة العباسي المنصور، فقد كانت تخطيطاتها وتصاميمها مركزة على أهمية التوزيع للوظائف الحضرية بطريقة المهم ثم الأهم من ناحية التجمع الرمزي والوظيفي اخذين بنظر الاعتبار أهمية التعايش والتعامل داخل هذه المستوطنة الجديدة^{٢٠}.

إن هذا التخطيط الحضري أصبح من زمنه نموذجاً يحتذي به في بعض المدن الإسلامية آنذاك، مع الابداع والتطوير، ثم جاءت بعدها تشييد مدينة سامراء العباسية (بعد اقل من ١٠٠ سنة) حاول الخليفة المعتصم بالله مع المهندسين التابعين له وكذلك الخليفة المتوكل بالله إن تكون مدينتهم أروع وأبداع مدينة من تاريخ المدن الإسلامية ولحد الآن، فلقد اجتهد الكندي وأولاد موسى^{٢١}، ونظريات الخوارزمي (مهندسون ومنفذ مدن)، إن تكون نظرياتهم في بناء المدن الحضرية متماشية مع كافة أنماط سكان سامراء من الجند وبقية الناس، بحيث إن كل طائفة أو قومية معينة روعي من خلال تعايشها وتعاملها مع بعضهم البعض إن تكون أماكن سكانها ذات خلفية هندسية مشابهة إلى بيئة كل قومية قبل سكانها لسامراء وكان التوافق الهندسي الجيومتري النمطي في توزيع العشائر والقوميات انذاك متماشي إيجابياً مع فكرة التعايش والتعامل داخل مدينة سامراء لهذا نلاحظ بان سكن القوات من العرب والأتراك كانت لهم خصوصية في التوزيع النمطي، أما بقية الناس من العامة كانت لهم نمطاً هندسية أخرى تتسجم مع بيئتهم قبل الإسلام، مع مراعاة التقدم العلمي الهندسي للتخطيط الحضري آنذاك، لهذا نرى بان مخطط مدينة سامراء كانت عبارة عن لوحة هندسية مختلفة التنظيم والتوزيع روعي فيه الكيفية من التعامل والتعايش لسكان سامراء ضمن روح الإسلام، وان إفران المناطق على اختلاف وظائفها كانت لها خصوصية هندسية جيومترية وبأسلوب غير متناقض الواحد مع الآخر^{٢٢}. بحيث يعطي ناتج ايجابي من ناحية تعامل ساكنيها داخل هذا المستوطن*.

إن نموذج هندسة بناء سامراء لاحظ الشكل (٣) قد اهتم بها من قبل الباحثين والاثاريين باعتبارها المدينة الوحيدة من تاريخ المدن الإسلامية للقرون الهجرية الأولى موجودة لحد الآن، وما متواجد

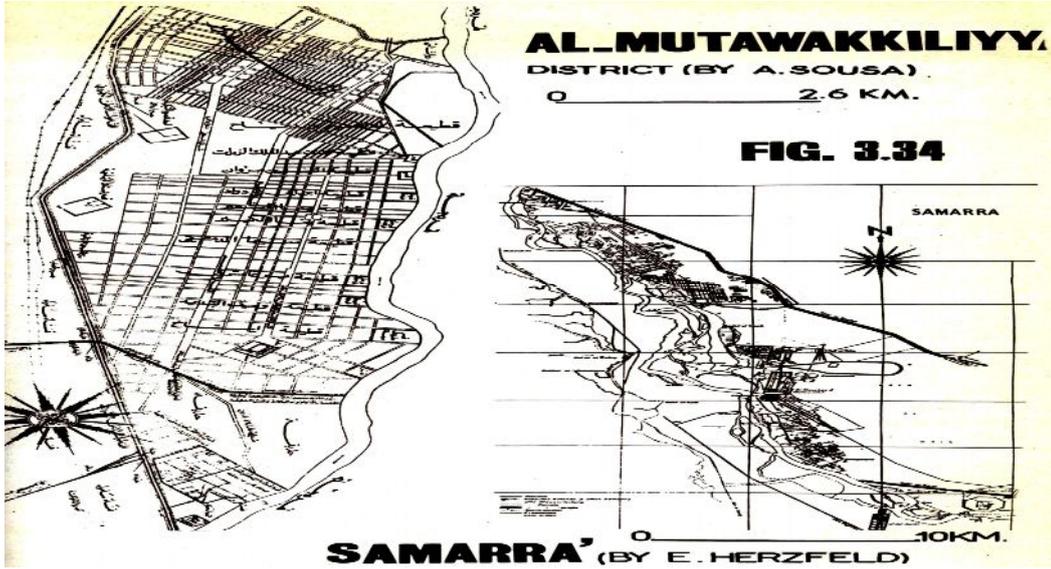
^{٢٠} د. مكيه، محمد، جواد، مصطفى وآخرون بغداد ص ٢١-٥٠، نقابة المهندسين العراقية، ١٩٧٦ بغداد.

^{٢١} - كئانه، د. لطف الله جنين، المدن الإسلامية في القرون الهجرية الأولى، بحث مقدم إلى ندوة المدن والعالم الإسلامية ص ٢٥، لندن، ١٩٨٠.

^{٢٢} - كئانه، د. لطف الله جنين، الأنماط الفضائية الحضرية في سامراء العباسية، ص ١٥٠-١٥٢، بحث حضري مقدم إلى جامعة مانجستر، ١٩٧٩.

* تجمعات الأتراك والفرنجانة والأشروسانه والعرب كل واحد له أسلوب تخطيطي حضري يختلف عن الآخر ولكن بفكر هندسي شامل روعي فيه أسلوب التعايش والتعامل وبتعاليم الإسلام.

منها حالياً هو بطول ٣٥ كلم وبعرض ٣ كلم، فقد كانت أول تجربة هندسية تخطيطية حضرية روعي فيها الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مع النجاح الباهر لفكره التعايش* داخل مجتمع إسلامي.



شكل (٣) يمثل مدينة سامراء والمتوكلية م / ١٩٧٩ , Kettanah

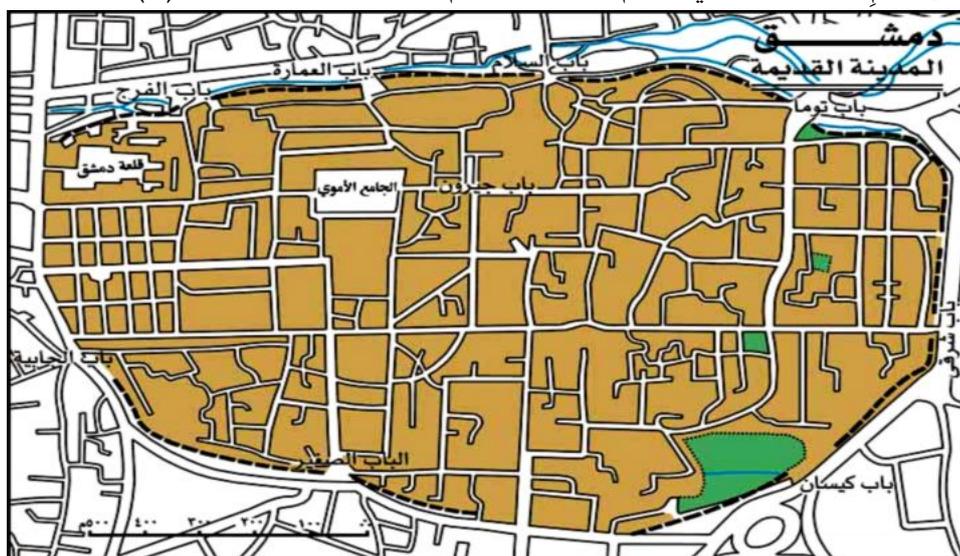
لذا ارتبطت العمارة الإسلامية بفكر العمارة الخفية، وذلك لعدم وجود شكل معماري محدد لوظيفة محددة. فالمبنى يخدم وظائف متعددة فالفناء ذو الاواوين الأربعة نجده في القصر والجامع والسراي والوحدة السكنية، حيث أن العمارة الإسلامية لا تغير أشكالها طبقاً لمتطلبات الوظيفة من خلال عناصرها المرتبة. وهناك حالة نوبان للجزء ضمن المحتوى العمراني كلياً. لقد اهتمت العمارة الإسلامية بالوظيفة من خلال التكوين الفراغي للكتلة ضمن الخصوصية الإسلامية. حيث يرى المسلم النحت والعمل المعماري من خلال خلق فراغ في الكتلة فتقوم باحتواء ذلك الفراغ تماماً كما يحتوي الجسد الروح. وإن العمارة الإسلامية تركز على فكرة كون الدين هو المنظم الرئيسي للحياة (حياة الفرد والمجتمع)، فنجد إن المبنى من الداخل يرتبط بالاستعمال الداخلي وهو من حق صاحبه المسلم، أما ما هو خارج المبنى فهو من حق المجتمع الإسلامي الذي تحكمه قيم المساواة والجوار والتكافل كما تحكمه القيم الاقتصادية التي تشكل أساس البنية الاجتماعية للمجتمع، وبعد ذلك تأتي القيم التشكيلية الداخلية والخارجية لاستكمال الصورة الحضارية للمبنى. وإن المظهر الخارجي للعمارة تحدده القيم العامة للمجتمع أما المظهر الداخلي

* أشار المؤرخون بان عدد سكان سامراء آنذاك ٣,٥ مليون نسمة أي بقدر تعداد سكان بغداد في السبعينات من القرن الماضي، هذا يدل على إن إدارة هذه المدينة كانت متقدمة بتقدم الحضارة الإسلامية آنذاك ولم يكن بسبب سقوط سامراء الذي هو وجود سلبيات في التعايش والتعامل وإنما الخلافات داخل البلاط الرسمي للخلفاء آنذاك.

فتحدده القيم الخاصة بأفراد المجتمع. حيث حدد الإسلام علاقة الفرد بالمجتمع فاعتبر ذاتية الفرد في باطنه أما ذاتية المجتمع ففي ظاهره.

دراسة تحليلية لتخطيط و عمارة مدينة دمشق القديمة:

تعد مدينة دمشق من أقدم مدن العالم بل هي أول عاصمة مأهولة في التاريخ الإنساني، وذهب البعض للقول أن دمشق أقدم مدينة ظهرت على وجه الأرض؛ حيث يعود ظهورها إلى ما بعد عصر طوفان نوح عليه السلام ذاته؛ أي منذ حوالي تسعة آلاف عام - كما دلت الحفريات بالقرب من منها في موقع تل الرماد- وبذلك تعد هي والقدس في فلسطين والجيزة أو منف في مصر هي أقدم مدن العالم وقد جاء في (معجم البلدان) لياقوت الحموي إن أول حائط وضع في الأرض هو حائط دمشق. وكانت دمشق منذ بداية تاريخها منظمة ولها شوارع متعامدة تحيط بها الأسوار والأبواب، والتي كانت شديدة الأهمية في حماية المدينة وسكانها، وقد كان لسور دمشق سبعة أبواب في العهد الروماني، وكانت تزيد أو تنقص عن هذا العدد كلما جرى تجديد السور؛ حيث كان يجري سدُّ أبوابٍ وفتح أبوابٍ أخرى"، ويصف المؤرخ حسن البدر في كتابه "نزهة الإمام في محاسن الشام" أبواب دمشق القديمة هذه، والتي كانت تحتوي على صور للكواكب ومداراتها، بما يدل على تقدُّم أهل دمشق في علوم الفلك منذ قديم الزمان^{٢٣} لاحظ الشكل (٤).



شكل (٤) يمثل مخطط يمثل مدينة دمشق القديمة (<http://www.shababsouria.com/portal>) وطيلة تاريخ المدينة لم يزد عدد أبوابها على العشرة هي: في الجهة الشمالية ٤ أبواب؛ هي: باب توما، وباب الفرج، وباب الجنيق، وباب الفراديس، وفي الجهة الجنوبية بابان؛ هما: باب كيسان،

^{٢٣} _ سوفاجيه، جان دمشق الشام (لمحة مختصرة منذ العصور القديمة وحتى العصر الحاضر) ،بيروت ١٩٣٦م.

وباب الصغير، وبالجهة الشرقية بابان؛ هما: باب شرقي، وباب السلام، وأخيراً وفي الجهة الغربية هناك بابان؛ باب الجابية، وباب النصر^{٢٤} لاحظ الشكل (٥).



شكل (٥) يمثل صورة قديمة لآحد اسوار دمشق ١٨٧٢

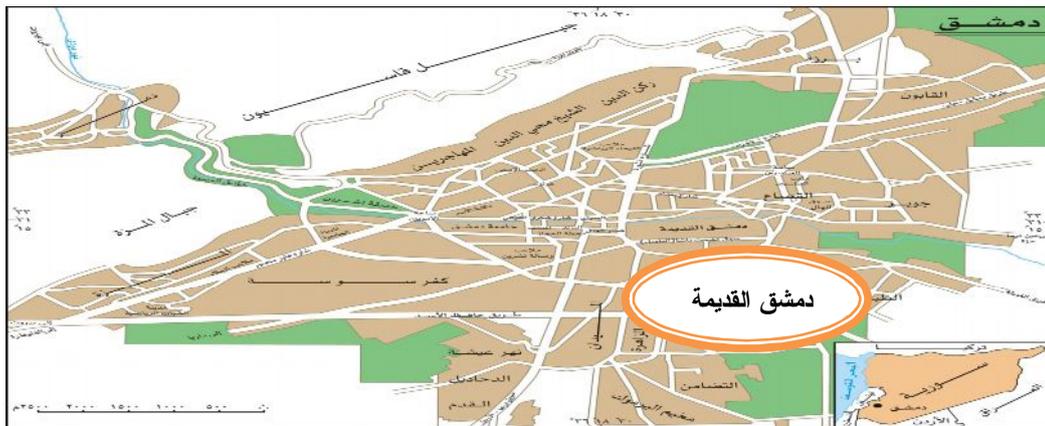
(<http://www.shababsouria.com/portal>)

احتلت دمشق عبر تاريخها الحضاري مكانةً متميزةً في مختلف مجالات المعرفة الإنسانية، في العلم والثقافة والسياسة والفنون، ويعود تاريخ تطورها الثقافي والحضاري إلى الألف الثالث قبل الميلاد، وقد أثبتت الأبحاث التاريخية أنه في نهاية الألف الثانية قبل الميلاد وضع الملك الآرامي ريزون قواعد مملكته في دمشق، وأول تاريخ مدون لها يُوضَّح أنها كانت موطناً للآراميين - وهم من العرب العاربة وهم من أصول العرب - في أواخر الألفية الثانية قبل الميلاد. فتح العرب المسلمون دمشق عام ١٤هـ/ ٦٣٥ م - ٦٣٦ م في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بجيش من أبرز قادته أبو عبيدة ابن الجراح و خالد بن الوليد، وقد ازداد تألقها الحضاري عندما أصبحت عاصمة الدولة العربية الإسلامية في العام ٤١هـ/ ٦٦١ م في عهد الدولة الأموية الأولى، حيث دخلت الجيوش العربية الإسلامية دمشق في القرن السابع الميلادي لكي تتحوّل المدينة إلى عاصمة للإمبراطورية الإسلامية الكبرى التي امتدت إلى حدود الصين شرقاً وإلى مياه المحيط الأطلنطي غرباً في العصر الأموي ازدادت مساحة العمران في دمشق، وشهدت المدينة العمارة الإسلامية على أصولها ممثلة في قصور الخلافة الأموية والجوامع الكبيرة، وكان من أهم مباني تلك الفترة الجامع الأموي الكبير الذي بُني في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وهو أحد أجمل المباني العربية الإسلامية في العالم، وجرى بناؤه على نموذج المسجد النبوي الشريف في المدينة المنورة.

والجامع الكبير كان في السابق كنيسة؛ وهي الكنيسة المعمدانية حيث أمر الخليفة الوليد بن عبد الملك بتحويلها إلى مسجد، وهناك آثار مسيحية ظاهرة للعيان في المسجد لم تهدم بفضل سماحة الإسلام والفاطحين المسلمين؛ حيث يحتوي المسجد على ما يعتقد أنه ضريح النبي يحيى عليه السلام. ويقدم الاضطخري ابراهيم بن محمد الفارسي في كتابه «الاقاليم» وصفاً عاماً لدمشق أواسط القرن الرابع الهجري، مبيناً لنا المعالم الرئيسة للمدينة: الأرض و الأشجار والمياه، وهو

^{٢٤} <http://www.shababsouria.com/portal>, nov, ٢٠١١.

يصف مسجدها الكبير الذي «ليس في الإسلام أعمر ولا أكبر بقعة منه...»، ويضيف الهروي علي بن أبي بكر الموصلي وهو سائح مشهور من القرن السادس الهجري في كتابه «الإشارات في معرفة الزيارات» المزيد من الوصف للمدينة، مقدماً الملامح الخارجية لمدينة دمشق ((لاحظ الشكل (٦)) وما يحيط فيها من جبل قاسيون، وجبل بردة (برزة)، إضافة إلى قرى وسهول المزه، وبرزة وعذراء، وراوية... وهو في كل ذلك يقدم ملامح تلك المعالم على ما فيها وبخاصة ما اتصل بروايات وفيات الصحابة والتابعين، وبأخبار الأنبياء وهي كثيرة، تتجاوز ظاهر المدينة إلى أحيائها ومن مر بها أو دفن فيها من كبار المسلمين^{٢٥}.



شكل (٦) يمثل موقع مدينة دمشق القديمة

الجامع الأموي..

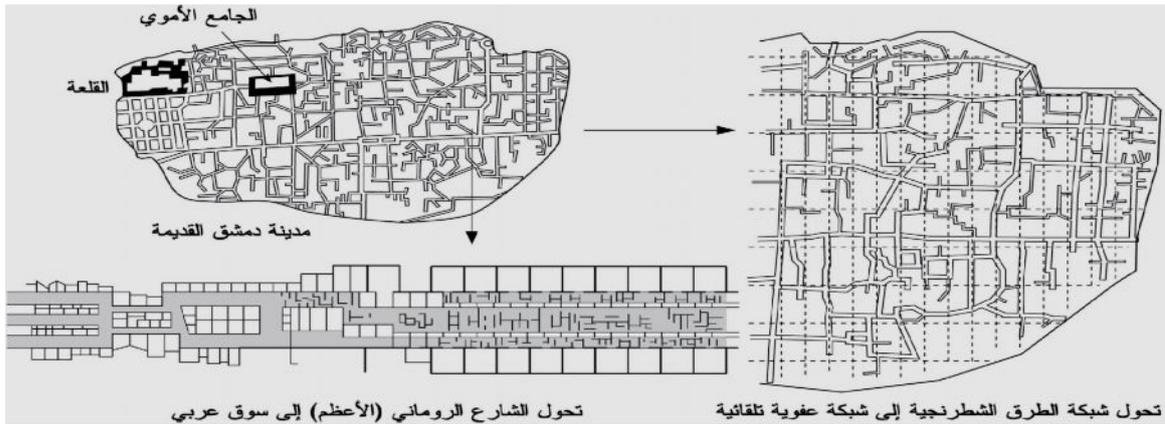
وهو من أكبر المساجد في بلاد الشام و يقع في قلب دمشق الفيحاء في نهاية سوق الحميدية الأثري و بالقرب من قلعة دمشق التاريخية ، ويعده المؤرخون واحدا من أشهر المعالم الإسلامية في العالم ، ويتميز هذا الجامع الذي بناه الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ٨٦ - ٩٦هـ في القرن الثامن الميلادي (بين ٧٠٥ - ٧١٥ م) باتساعه وضخامته و هندسة معمارية إسلامية فنية رائعة الجمال ، إضافة إلى قبته الضخمة ومآذنه الثلاث الشامخة ولوحاته الفسيفسائية النادرة التي تعد من روائع الفنون الشرقية .. وهو مثال حي على الطراز المعماري العريق الذي لا يزال حاضرا في وجدان المدينة حياً لا يموت منذ مئات السنين.. لقد ظل الجامع الأموي شامخا على مر العصور على الرغم ما تعرض له من أذى و حرق .. وقد رُم عدة مرات فإزداد بناؤه رونقا وروعة وجمالاً^{٢٦}. ويكتسب الجامع الأموي أهمية دينية كبرى لدى المسلمين إذ يحتوي على ضريحي (النبي يحي عليه السلام) و البطل المسلم قاهر الصليبيين (صلاح الدين الأيوبي) وفي

^{٢٥} _ وزير، يحيى، العمارة الإسلامية والبيئة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٤م.

^{٢٦} _ ٢٠١١، June، A/، www.islamweb.net/ver2/Library/ummah_Book.php?lang=A/june,2011

الزاوية الشمالية الشرقية للمسجد مشهد الحسين الذي يضم بداخله رأس أبي عبد الله الحسين شهيد كربلاء(ع).

و في عام ٧٥٠ م انتهى عصر ازدهارها بقيام الدولة العباسية و سادت فيها الفوضى و تجاذبها الطامعون من الحكام و الإقطاعيين في مصر، فحكمها الطولونيون ثم الأخشيديون ثم الفاطميون. و في عهد الدولة الأيوبية معالم مهمة من أبرزها البيمارستان النوري، وهو اليوم متحف العلوم والطب العربي؛ حيث تعرض أجمل نماذج الخطوط التي استعملت للمرة الأولى أثناء حكم نور الدين محمود، وكذلك حمام نور الدين في البرورية، وهو أقدم حمامات دمشق، ولا يزال موجوداً ويعمل إلى اليوم، وهناك أيضاً مدرسة ومقبرة نور الدين محمود، وقلعة دمشق ذات الأبواب الأربعة. وفي دمشق أكثر من ٢٠٠ مسجد أثري، منها ٧٠ مسجداً مستعملاً اليوم. وفي عام ٤٧٦ هـ/ ١٠٨٥ م، دخلت دمشق تحت حكم السلاجقة فعادت من تبعية القاهرة إلى سلطة حكام بغداد و الخلافة العباسية إلا أنها تبعية اسمية، و في عام ٤٩٠ هـ/ ١٠٩٦ م تأسست في دمشق إمارة سلجوقية محلية و اشتد الصراع مع الغزاة الصليبيين ملوك القدس في ذلك الوقت، و قد حاول الصليبيون غزوها بقيادة بعض ملوكهم، و في عام ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤ م بدأت دمشق تستعيد مكانتها السياسية بوصفها عاصمة لدولة قوية عندما دخلت في حوزة نور الدين بن زنكي، وحملت لواء تحرير المناطق المحتلة من الغزاة الصليبيين، ووصلت قمة مجدها السياسي والعسكري في صراعها مع الصليبيين عندما أصبحت عاصمة الدولة الأيوبية ٥٧١ هـ/ ١١٧٤ م ، وانطلقت منها جيوش العرب المسلمين بقيادة صلاح الدين الأيوبي لتحرير القدس من الغزاة ٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م بعد أن كان الفرنجة الصليبيون قد هددوا دمشق أكثر من مرة. وقد دخلت تبعية حكم المماليك في القاهرة منذ عام ١٢٥٩ م، ثم تعرضت لحملة المغول بقيادة هولاكو الذي نشر فيها الدمار عام ٦٥٩ هـ/ ١٢٦٠ م و تكررت مأساة دمشق على يد المغول ثانية على يد غازان ثم الثالثة عام ١٤٠١ م ، وحلت بالمدينة نكبة كبيرة حيث أصاب الدمار معظم مبانيها، وقتل عدد كبير من أهلها واحترقت أحيائها، وانسحب منها المغول بعد بضعة أشهر وعادت لنفوذ المماليك ثانية، وعاد إليها ازدهارها العمراني والثقافي والإقتصادي^{٢٧} لاحظ الشكل (٧).



شكل (٧) يمثل مخططات لمدينة دمشق القديمة (موقع الجامع الاموي ، شبكات الطرق)

كانت عمارة البيوت الدمشقية عبارة عن مجموعة من المنازل تكاتفت بعضها مع بعض وتم إنشاء الطرق القليلة المساحة زيادة في العامل الأمني وسهولة الدفاع عن هذه الحارات وقت اشتداد الأزمات وأصبحت كل حارة من حارات دمشق عبارة عن كتلة من الأبنية مترابطة ولكل حارة باب أو أكثر من باب يقفل في المساء. و شوارع دمشق عبارة عن أزقة مترابطة وكانت المباني تبدو من الخارج فقيرة المظهر بينما في الداخل تعج بكل ما يشتهي المسلم من جمال لتخطيط وحسن الإقامة وكثرة الزخارف. وعلى الرغم الطرز المعمارية الموجودة بدمشق الإسلامية وغير الإسلامية ومدد الازدهار العمراني والانحدار الذي شهدته يجعل عمران دمشق وكأنه لوحة جميلة متصلة ذابت فيها العناصر والمميزات الخاصة لتظهر ملامح دمشقية أصيلة فرضت نفسها بحكم تأثير التاريخ والموقع والبيئة كل ما أنتج في هذه المدينة فكانت دمشق لوحة فنية كبيرة شكل عناصرها كثيرون ولكنها رسمت بأياد دمشقية فكانت دمشق عروس الشرق.

وقد شهدت حركة البناء في المدينة آخر معالمها العمرانية الشرقية في القرن الثامن عشر الميلادي عبر ما يُعرف باسم البيوت الدمشقية، وأشهرها وأهمها بيت خالد العظم، وبيت أحمد السباعي، وبيت النابلسي، وبيت القوتلي، وبيت دحدح، وبيت المعلم، يتميز البيت الدمشقي أو البيت العربي بغرفٍ موزعةٍ في طبقتين تحاط بفسحة مكشوفة مزينة بالنباتات ونوافير المياه^{٢٨} لاحظ الشكل (٨).



شكل (٨) يمثل تخطيط حي سكني قديم في مدينة دمشق ، وبيت دمشقي يظهر فيه الفناء الداخلي م /
<http://www.3marah.com/vb>

لذا فقد ظهرت التصاميم المعمارية الأولى مستوحاة من التصاميم التي كانت سائدة في ديار الإسلام، والتي استمرت معلماً هاماً يستوحي منه الفنان في العصر الإسلامي. هذا الفنان الذي أسلم أو بقي على دينه، كان قد نقل تقاليد فن العمارة السائدة قبل الإسلام إلى العمارة الإسلامية، إذ تمكن العرب المسلمون الفاتحون من استيعاب هذا التنوع والاستفادة منه وتطويره ليتناغم ويتكامل بانسجام في الدولة الإسلامية الواحدة.

وبذلك يتجلى الإبداع التخطيطي والتصميمي في العمارة الإسلامية في تحقيق التوازن المناخي أو ما يسمى التكيف، ليس عن طريق إضافة أجهزة بل عن طريق التخطيط والتكوين المعماري الاهتمام بالفناء الداخلي من سمات البيت في المدينة الإسلامية والذي جاء تلبية لاحتياجات مناخية واجتماعية فهو ضروري لتدخل الشمس البيوت المتلاصقة لإضفاء الدفء والإنارة الطبيعية وتكييفه طبيعياً بالبحيرات والنوافير للتقليل من الحرارة وتوفير الجو اللطيف المناسب للعائلة كذلك فإن الفناء يلبي الاحتياجات الاجتماعية بحيث تفتح الفتحات في الطبقة الأرضية على الفناء و ليس على الخارج كي لا يتم كشف البيوت الملاصقة للأزقة والشوارع من الخارج و البيوت الدمشقية مشهورة بهذه الأبنية .

إلا أن العمارة لم تغفل عن إعطاء البيئة والمحيط الحضري القدر الكافي من التميز حيث أصبح النسيج الحضري بحد ذاته للمدينة الإسلامية بعداً جديداً اشتق من معاني التكافل والوحدة بتلقائية وسلاسة، مما أتاح لمزيد من التجسيد الفعلي لمعاني العروبة و الإسلام ، فتشكلت بيئة المسلم من مجموعة معطيات حياته الاجتماعية والثقافية والسياسية مما انعكس على العمران لمدينته ونسيجها الحضري فكانت المساجد والأسواق و الأبنية العامة والخاصة والقصور وبيوت العلم وغيرها من العناصر المكتملة للبيئة الحضارية الحديثة والتي استطاعت التميز والديمومة ومحاولة تقليدها من الحضارات الأخرى لما لها من أهمية إنسانية وبيئية واجتماعية.

ومن الجدير بالذكر أن عمارة المدينة الإسلامية اهتمت كجزء من أولوياتها بالحاجة الاجتماعية للمسلمين فكانت المباني المعمارية نموذجاً مباشراً لتلبية الوظيفة الاجتماعية بتداخل مع الثقافة وحسب الإقليم الذي ينتشر فيه الإسلام ولكن بمضمون واحد، مما أدى إلى تلاحم الإنسان المسلم مع بيئته وشعوره بالانتماء الكامل إلى محيطه وبيئته المبنية.الإسلام دين يحث على الإبداع والإنتاج أوجد منظومة جديدة من الوظائف المعمارية الحديثة المستمدة منه، فظهر المسجد والمسجد الجامع وظهرت الزوايا و الأربطة وغيرها الكثير من الوظائف المعمارية التي شكلت في مضمونها نوعاً جدياً من العمارة سواء أكان ذلك من ناحية الشكل أم المضمون الذي ارتقى إلى

مستوى التفصيلة المعمارية الدقيقة والتقنية ذات المحتوى الفكري الذي توزع بشكل متساوٍ ثقافياً واجتماعياً وسياسياً، فكان التوازن الرمزي الوظيفي غير ملحوظ بحالته الاعتيادية، بل كان منسجماً كجزء واحد ضمن الهدف المعماري الفني. وتعتبر تجربة عمارة وتخطيط مدينة دمشق من التجارب التي روعيت فيها كافة الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، التي عبرت فكرتها ايضاً "التعايش" داخل مجتمع إسلامي.

الاستنتاجات والتوصيات:

الاستنتاجات:

- ١_ ان للعقيدة الإسلامية دور اساسي ينعكس على النسيج الحضري، لأنها منبع الاحتياجات الروحية والمعنوية للانسان وهي المنظم لاحتياجاته المادية في صورة متكاملة تتوازن فيها المعنويات مع الماديات، وكذلك فهي تنظيم للاحتياجات المعيشية للمجتمع من خلال القيم السلوكية للحياة بهدف الحصول على الانسان المسلم المتكامل، لذلك فأن للعقيدة الدور الاساس في تشكيل عمارتها.
 - ٢_ ان قوام المدينة العربية الاسلامية قد بني على اساس العلاقة القائمة ما بين البشر على التعايش والتعامل الحضاري.
 - ٣_ تمثلت العمارة الاسلامية بعمارة المساجد والوحدات السكنية المحيطة بها بصورة متلاحمة ومجموعة حول المسجد مما عكس صفة التلاحم والتعاطف السلمي.
 - ٤_ استمدت المدينة الاسلامية تخطيطها وعمارته من الجوانب الفكرية للدين الاسلامي وعكست ذلك في الجوانب الثقافية والحضارية فلم تكن عمارة مفروضة على الانسان بل نابعة من صميم حياته وفكره.
 - ٥_ تمثل مدينة دمشق نموذجاً لمعظم المدن العضوية التقليدية ذات عملية النمو المتسلسلة طبيعياً مع احتياجات المجتمع والإحساس بالعضوية ليس أحساساً كخصائص هيكلية فقط.
- التوصيات:
- ١_ الدراسة الجدية والعميقة للأنماط المعمارية والتخطيطية للمدن القديمة لوضع المبادئ والأسس والفلسفات التي يجب أن تأخذ بنظر الاعتبار في المعمار والمخطط الحضري ، لإيجاد صورة متكاملة للنسيج العمراني تربط الماضي بالحاضر.
 - ٢_ ضرورة الحفاظ على الشكل المعماري للمدينة القديمة والعمل على تطويره أو توفير الخدمات اللازمة لهذه المناطق مع الحفاظ على الطابع المعماري والتخطيطي المميز لها.
 - ٣_ لا بد أن يكون هناك أسلوب خاص في التعامل مع المدينة القديمة من الناحية التخطيطية كونها تحمل أبعاداً تعبيرية وراثاً حضارياً وواقعاً خاصاً.



٤_ توظيف القيم والخصائص المعمارية التقليدية في عمليات التحديث الحضري لما تحمله من معانٍ تعبر عن ثقافة وعادات المجتمع وأيضاً تعبر عن خصائص البيئة المكانية في المدينة، على أن تطور هذه الدلالات الرمزية بصورة عصرية تتلاءم مع واقع العصر.

المصادر

* القرآن الكريم: إل عمران: ٩٦.

- ١_ اليسيف ، نيكيتا ، التخطيط المادي ، مقالة من حلقة الندارس التي عقدت بمركز الشرق الأوسط التابع لكلية الدراسات الشرقية جامعة كمبرج ، المملكة المتحدة تحت عنوان "المدينة الإسلامية" ،ترجمة احمد تغلب ، أشرف على النشر (ر.ب. سرجنت) ، اليونسكو، ١٩٨٣، ص١٥ .
- ٢_ الجادري ، رفعت، التراث ضرورة ، مجلة اتحاد المهندسين العرب ، العدد ٣٧/١٩٨٥ ، إصدار الأمانة العامة لاتحاد المهندسين العرب ، بغداد، ١٩٨٥ ، ص٢٣ .
- ٣_ عثمان ،محمد عبد الستار، "المدينة الإسلامية" ، سلسلة عالم المعرفة ، الكويت ص١٩٨٨، ٥١م.
- ٤_ الهذلول، صالح بن علي، المدينة العربية الإسلامية، اثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية، ص١٩٩٤، ١٩م.
- ٥_ الموسوي، مصطفى عباس، العوامل التاريخية لنشأة وتطور المدن العربية الإسلامية ، بغداد ص١٩٨٢، ١٥٩.
- ٦_ ياقوت، شهاب العربي أبي عبد الله، معجم البلدان، ج٤، ص٤١٤-٤٦٦، مطبعة دار الجبل لبنان، ١٩٧٦.
- ٧_ الخربوطلي، د. علي حسين، تأريخ مكة، ص٦٥-٨٠، مطبعة دار الجبل، لبنان، ١٩٧٦.
- ٨_ خليل، د. شوكت، أطلس السيرة النبوية، ص٦٤-٩٠، دار الفكر المعاصر دمشق، ٢٠٠٣.
- ٩_ حامد، د. خالد محمد، ذكرى في المدينة المنورة، ص١٧-٢٥، دار المأمون للتراث، ٢٠٠٢.
- ١٠_ علي ، سيد عباس ، اثر البعد البيئي على تخطيط المدن والعمارة العربية الإسلامية، مؤتمر الأزهر الهندسي الدولي التاسع، ابريل ١٢-١٤/٢٠٠٧.
- ١١_ د. مكيه، محمد ، جواد، مصطفى وآخرون بغداد ص ٢١-٥٠، نقابة المهندسين العراقية، ١٩٧٦ بغداد.
- ١٢_ كتانه، د. لطف الله جنين، المدن الإسلامية في القرون الهجرية الأولى، بحث مقدم إلى ندوة المدن والعوالم الإسلامية ص٢٥، لندن، ١٩٨٠.
- ١٣_ كتانه ، د. لطف الله جنين، الأنماط الفضائية الحضرية في سامراء العباسية، ص١٥٠-١٥٢، بحث حضري مقدم إلى جامعة مانجستر، ١٩٧٩.
- ١٤_ سوفاجيه، جان دمشق الشام (لمحة مختصرة منذ العصور القديمة وحتى العصر الحاضر) ،بيروت ١٩٣٦م.
- ١٥_ <http://www.shababsouria.com/portal,nov,٢٠١١>.
- ١٦_ وزيري، يحيى، العمارة الإسلامية والبيئة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، ٢٠٠٤م.
- ١٧- www.islamweb.net/ver٢/Library/ummah_Book.php?lang=A-,june,٢٠١١/
- ١٨- http://www.marah.com/vb_spt,٢٠١١.
- ١٩- Etting Housen, J I, Islamic Arabia, oxford press, London, ١٩٧٧
- ٢٠- Haurani, F Islamic cities , oxford press, London, ١٩٨٠ .
- ٢١- Lewis, parry, spread of Islam, Manchester press, ١٩٨٩